"جهود الشيخ عبدالرحمن السعدي في تحرير الضوابط المتعلّقة بأفعال الله وصفاته"

بحث مقدم لمؤتمر:"الشيخ العلاّمة عبدالرحمن بن ناصرالسعدي آثاره ومنهجه في الاجتهاد والتجديد والدعوة". **الذي تنظمه/كلية العلوم والآداب في عنيزة (بجامعة القصيم)– بالتعاون مع كرسي الشيخ ابن عثيمين للدراسات الشرعية بتاريخ ٢٠– ٢١ رجب ١٤٤٠هـ .**

إعداد: د.أيمن بن سعود العنقري

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

بجامعة الإمام محمدبن سعود الإسلامية بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين أمّابعد:

فإنّ الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي المتوفى في سنة ١٣٧٦هـ–رحمه الله– من المتمكنيين في علوم الشريعة، ومنها العقيدة، وألّف في ذلك مؤلفاتٍ سهلة الأسلوب، واضحة المعاني، جامعة شاملة.

وقد كان له – رحمه الله – عناية بالغة بالعقيدة السلفية، كشأن علماء أهل السنة والجماعة.

وقد خصّها بمؤلفاتٍ كثيرةٍ لتوضيحها والرد على من خالفها.وقد استفاد كثيراً من كتب من سبقه من علماء أهل السنة المتقدمين، ولاسيّما كتب العالمين الجليلين شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم اللذين ظهر تأثّره بهما في مؤلفاته، فقد نهج نهجهما في تأصيل اعتقاد أهل السنة وتقرير قواعدهم، وتحرير الضوابط في المصطلحات العقدية كما اعتنى –رحمه الله–بمؤلفاتهما شرحاً وتوضيحاً وتبييناً.

وقد رغبت المساهمة في إبراز جهود هذا العالم الجليل في جانبٍ مهم من جوانب الاعتقاد وهو:"جهوده في تحرير الضوابط المتعلّقة بأفعال الله وصفاته".

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١– إبراز جهود الشيخ عبدالرحمن السعدي في تحريره للضوابط المتعلّقة بأفعال الله وصفاته.

٢– دقّة الشيخ عبدالرحمن السعدي في تحريره للضوابط وصياغتها صياغة متقنة، مع تميّزه بسهولة العبارة.

٣– تميّز الشيخ عبدالرحمن السعدي بدقة فهمه لمسألة :"دوام أفعال الله في الماضي والمستقبل" المشهورة ب "تسلسل الحوادث". وحسن عرضه لها بتحرير ضابطها بعبارةٍ واضحة؛ ممّا سهّل فهمها لدى المتخصصين في العقيدة وعموم طلاب العلم.

الدراسات السابقة:

توجد دراسةً بعنوان:"الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة".للشيخ الدكتور:عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد.قدّمت لنيل درجة الماجستير من قسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين في

الجامعة الإسلامية عام ١٤٠٧ هـ . تحدث فيها إجمالاً عن جهود الشيخ عبدالرحمن السعدي في توضيح عقيدة أهل السنة والجماعة كالإيمان بالله وأنبيائه، واليوم الآخر، والرد على المخالفين.

وأشار إشارةً مختصرةً جداً إلى كلام الشيخ السعدي عن تقسيم الصفات وأمثلةٍ عليها من ص١٣٣إلى ص١٣٩ . وممّا يلاحظ على بحثه مايلي:

١- لم يستوف جمع كلام الشيخ السعدي في ضوابط الصفات؛ لأنّ للشيخ رحمه الله كلاماً في تحرير بعض الضوابط طبعت مؤخراً وكانت في عداد المخطوط أثناء بحث الدكتور:عبدالرزاق العباد لجهود الشيخ عبدالرحمن السعدي في توضيح العقيدة، فمن ذلك على سبيل المثال:

- كتاب: "الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية".وهي مراسلات بين الشيخ عبدالرحمن السعدي مع بعض علماء الكويت في الفترة مابين ١٣٦٧-١٣٧٤هـ . تضمنّت تقريرات نفيسة للشيخ حول الفرق بين الصفات الذاتية وصفات الأفعال وصفات المعاني، وعن الفرق بين الصفات السمعية والعقلية عند أهل السنة وعند أهل الكلام. وهذه التقريرات لم تكن موجودة بهذا التحرير في مصنفات الشيخ الأخرى.

  وقد طبعت عام ١٤٢٣هـ بتحقيق:د.وليد بن عبدالله المنيس، والناشر:مركز البحوث والدراسات الكويتية. بعد انتهاء الدكتور:عبدالرزاق العباد من رسالته الماجستير.

- مجموعة مراسلات نادرة لم تنشر من قبل. ومنها:مراسلة بين الشيخ عبدالرحمن السعدي والشيخ عبدالعزيز السبيّل.حيث استشكل الشيخ السبيّل ماأورده الشيخ عبدالرحمن السعدي في مقدمة القول السديد من أنّ صفة الكلام لله من صفات الأفعال، وأنّه قد تقرّر أنها من صفة ذاتٍ وفعلٍ معاً، فبيّن له الشيخ عبدالرحمن بأنّ الأمر كماذكرتم، وأشار إلى فرقٍ دقيق بين صفات الذات والأفعال.

وهذه المراسلة نشرت في المجلد الخامس والعشرين (المراسلات) من مجموعة مؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي. الذي طبعته :دار الميمان للنشر والتوزيع . الطبعة الثانية/١٤٣٦هـ -٢٠١٥م .

٢- لم يذكر الدكتور:عبدالرزاق العباد تحريرات الشيخ عبدالرحمن السعدي المتعلّقة بأفعال الله، كمسألة دوامها في الماضي والمستقبل .المشهورة ب تسلسل الحوادث. وهذا ممّا سيذكر في بحثي هذا.

منهج البحث:

الاستقرائي والوصفي والتحليلي النقدي.

خطة البحث:

تشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث:

تمهيد وفيه:

- ترجمة مختصرة للشيخ عبدالرحمن السعدي .

- تعريف بمصطلحات العنوان:الضوابط، أفعال الله، صفات الله.

المبحث الأول: جهود الشيخ عبدالرحمن السعدي في تحرير الضوابط المتعلقة بأفعال الله.

المبحث الثاني: جهود الشيخ عبدالرحمن السعدي في تحرير الضوابط المتعلّقة بصفات الله.

المبحث الثالث: جهود الشيخ عبدالرحمن السعدي في نقد ضوابط الصفات والأفعال لدى المتكلّمين.

الخاتمة:

وفيها أبرز نتائج البحث والفهارس .

ترجمة مختصرة للشيخ عبدالرحمن السعدي:

هو الشيخ عبدالرحمن بن ناصربن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سعدي.من نواصربني تميم، من بني عمرو أحد البطون الكبار من قبيلة بني تميم الشهيرة(١). ولد في عنيزة في القصيم، بتاريخ ١٢محرم سنة ١٣٠٧هـ

توفي والداه وهو صغير. فقامت زوجة والده بتربيته. وكان والده قدأوصى به إلى ابنه الأكبر حمد فقام برعايته.وكان الشيخ عبدالرحمن السعدي منذنشأته صالحاً محافظاً على الصلوات الخمس مع الجماعة.

واشتهر منذحداثته بفطنته وذكائه ورغبته الشديدة في طلب العلم وتحصيله(٢).

كان مرجع بلده عنيزة وعمدتهم ، فهومدرس الطلاب وواعظ العامّة وإمام الجامع وخطيبه، ومفتي البلاد وكاتب الوثائق ومحرّر الأوقاف والوصايا وعاقد الأنكحة ومستشارهم فيمايهمهم(٣).

مشايخه:

تتلمذ على كثيرٍ من العلماء، بعضهم من عنيزة وبعضهم من الوافدين إليها، فمن أبرزهم:

١- الشيخ إبراهيم بن حمد الجاسر المتوفى سنة ١٣٣٨هـ في الكويت.وهوأول من قرأ عليه الشيخ وأخذ عنه التفسير.وكان ابن سعدي يصف شيخه بحفظ الحديث والورع ومحبة الفقراء ومواساتهم(٤).

٢- الشيخ محمدبن عبالكريم الشبل المتوفى سنة ١٣٤٣هـ أخذ عنه الفقه وأصوله وعلوم العربية(٥).

٣- الشيخ صالح بن عثمان القاضي قاضي عنيزة، المتوفى سنة ١٣٥١هـ .أخذ عنه التوحيد والتفسير والفقه وأصوله وفروعه وعلوم العربية، وهوأكثر من قرأ عليه الشيخ عبدالرحمن ولازمه ملازمةً تامّةً حتى توفاه الله.وكان هوالذي يقرأ على الشيخ في الدرس والشيخ صالح يقرّر على قرآءته. وكان الشيخ السعدي له صوت حسن رخيم لايملّه سامعه(٦).

---

(١) انظر:روضة الناظرين للقاضي (٢/٢١٩)، وعلماء نجد للبسام (٢/٤٢٢).

(٢) روضة الناظرين (١/٣١٩).

(٣) علماء نجد للبسام (٢/٤٢٤).

(٤) انظر:علماء نجد للبسام (٢/٤٢٥)، ومشاهير علماء نجد لعبدالرحمن آل الشيخ (ص٣٩٢).

(٥) علماء نجد للبسام (٢/٤٣٥).

(٦) روضة الناظرين للقاضي (١/٢٢٠).

٤- الشيخ علي بن ناصر أبووادي المتوفى في عنيزة سنة ١٣٦١هـ . أخذ عنه الشيخ ابن سعدي الحديث الأمّهات الست وغيرها، وأجازه في ذلك..وأخذ عنه التفسير وأصوله، وأصول الحديث(١).

٥- الشيخ محمد الأمين محمود الشنقيطي.المتوفى في الزبير صباح الجمعة ١٤جمادى الثانية سنة ١٣٥١هـ قرأ عليه الشيخ ابن سعدي لما قدم إلى عنيزة وجلس فيها للتدريس سنة ١٣٣٠هـ .أخذ عنه التفسير والحديث ومصطلح الحديث وعلوم العربية كالنحو والصرف وغيرهما..وأخذ عنه إجازةً بالرواية(٢).

ولقد اعتنى الشيخ ابن سعدي بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم عنايةً بالغةً، فأكبّ عليها مطالعةً واستذكاراً وحفظاً وفهماً وتلخيصاً وشرحاً..وكان أعظم اشتغاله بها، وحصل له بسبب ذلك انتفاع كبير، وخيرعظيم.

يقول الشيخ محمدبن عثمان القاضي:"لقد أكبّ بالمطالعة على كتب الفقه والحديث طيلة حياته خصوصاً على كتب الشيخين، فقد كانت له صبوحاً وغبوقاً"(٣).

- جلوسه للتدريس:كان أول جلوسه للتدريس في الثالثة والعشرين من عمره.فأقبل عليه طلاب العلم من عنيزة وماجاورها، ورغبوا في دروسه وحرصوا على الاستفادة منه.حتى زملاءه في الدراسة لمارأوا تفوقه عليهم ونبوغه، تتلمذوا عليه وصاروا يأخذون عنه العلم وهوفي سنٍّ مبكرٍ. حتى إنه منذ عام ١٣٥٠هـ

صار مرجع التدريس ومرجع الإفتاء في بلده وماحولها من القرى وأصبح المعول لدى جميع الطلاب في أخذ العلوم. ومن أبرز تلاميذه:

١- الشيخ محمدبن صالح العثيمين.خلفه في إمامةوخطابة الجامع الكبير في عنيزة. المتوفى سنة ١٤٢١هـ.

٢- الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام رئيس محكمة التمييز في المنطقة الغربية المتوفى سنة ١٤٢٣هـ.

٣- الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل.عضومجلس القضاء الأعلى.وعضوالهيئة القضائية في وزارة العدل المتوفى سنة ١٤٣٢هـ .

---

(١) علماء نجد للبسام (٢/٤٢٥).

(٢) مشاهير علماء نجد لعبدالرحمن ال الشيخ (ص٣٩٢).

(٣) روضة الناظرين للقاضي (١/٢٢٠).

٤- الشيخ عبدالعزيز بن محمد السلمان، درّس في معهد إمام الدعوة بالرياض.وسلك طريقة شيخه في التأليف. المتوفى سنة ١٤٢٢هـ . وغيرهم كثير.

مؤلفاته:

كان الشيخ ابن سعدي ذا عنايةٍ بالغةٍ في التأليف، ومؤلفاته كثيرة في أنواع العلوم الشرعية، فألّف في التوحيد والفقه والحديث والتفسير ومحاسن الدين وغيرها. فمن أبرز مؤلفاته:

١- الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين. وهي رسالة مختصرة اعتنى فيها بالرد على الملاحدة المنكرين لوجود الله.

٢- توضيح الكافية الشافية.وهذا الكتاب شرح للقصيدة النونية لابن القيم.وقد اقتدى في عمله هذا بابن هشام في توضيحه لألفية ابن مالك.

٣- تيسيرالكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.وهوتفسيركامل للقرآن.وتميّز بسهولة ألفاظه وخلوّه من التكلّف والحشو، وذلك ؛ لأنّه يقتصر فيه على توضيح الآيات وبيان معانيها.

٤- الإرشاد إلى معرفة الأحكام.وهومجلد لطيف ألّفه على طريقة السؤال والجواب.تناول فيه أبواب الفقه.

٥- بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخبار في شرح جوامع الأخبار.وهومجلد لطيف اشتمل على تسعةٍ وتسعين حديثاً من الأحاديث النبوية الجوامع في أصناف العلوم والموضوعات النافعة والعقائد الصحيحة والأخلاق الكريمة والفقه والآداب، مع شرحها وبيانها.

٦- طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول. وهومجلّد كبير اشتمل على خمس عشرة وألف مابين قاعدةٍ وأصلٍ وضابط جامعٍ وتعريفٍ مهم وترغيبٍ في كمال وتحذيرٍ من نقص.اختارها من أكثر من ستين كتاباً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

٧- القول السديد في مقاصد التوحيد.وهوتعليق مختصر على كتاب التوحيد للشيخ محمدبن عبدالوهاب، وتوضيح مقاصده.ذكر في مقدمته خلاصة اعتقاد أهل السنة والجماعة في جميع أبواب العقيدة.

٨- الفتاوى السعدية.وهومجلد كبير اشتمل على جملةٍ كبيرةٍ من الفتاوى التي أجاب بها الشيخ على الأسئلة المتنوعة، فكان يجيب عليها محرّرة ثمّ يقوم بإرسالها إلى السائل.وجمعت بعد وفاته وسميت بهذا الاسم.

إلى غير ذلك من مؤلفاته التي أظهرت براعته في ضبطه لعلوم الشريعة ومنها:العقيدة والتوحيد.

وفاتـه:

توفي رحمه الله قبل طلوع فجريوم الخميس الموافق ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هـ عن تسعٍ وستين سنة.وصلي عليه بعد صلاة الظهر في الجامع الكبير بعنيزة في حشدٍ كبيرٍ من أهلها والقرى المجاورة.

تعريف بمصطلحات العنوان:الضوابط، أفعال الله، صفات الله:

الضوابط في اللغة:

جمع ضابطٍ، وهومن الضبط، وضبط الشيء:حفظه بالحزم، والرجل ضابط أي:حازم[١].

وفي الاصطلاح:

هومايجمع فروعاً من بابٍ واحد[٢].

ومن أمثلته في باب الاعتقاد:

"الله لم يزل متكلماً إذا شاء وبماشاء" و"كلام الله بحرفٍ وصوتٍ"، فهذان ضابطان متعلّقان بصفة الكلام.

ومن الأمثلة أيضاً في باب الاعتقاد:

"النزول متعلّق بالمشيئة"و"إثبات النزول لايلزم منه خلو العرش".وهذا ضابطان متعلّقان بصفة النزول.

ومن أهمّ الفروق بين القاعدة والضابط:أنّ القاعدة تجمع جزئيات كثيرةٍ في أبوابٍ شتى، وأمّا الضابط فهو يجمع جزئيات في بابٍ واحد[٣].فالقواعد أعمّ وأشمل من الضوابط .

---

(١) انظر:لسان العرب لابن منظور (١٦/٨).

(٢) غمزعيون البصائر للحموي (٣١/١).

(٣) انظر:الأشباه والنظائر للسبكي (١١/١).

فمثلاً قاعدة: "لايتجاوز القرآن والحديث" تدخل في أبوابٍ كثيرةٍ في الاعتقاد مثل:

باب الأسماء والصفات:فهوباب توقيفي لايتجاوز به النص، كما قال الإمام أحمد رحمه الله:"لايوصف الله إلاّ بماوصف به نفسه أووصفه رسوله لايتجاوز القرآن والحديث"(١).

وأيضاً باب القدر:فنقتصر في الكلام عليه على ماجاء في نصوص الوحي، كمراتبه الأربعة والحكمة في أفعاله وخلقه جلّ وعلا لأفعال العباد ونحوذلك، دون السؤال عن أفعال الله ب "لم"؟ فهذا الجانب من القدرنُهينا عن الخوض فيه.

أمّا الضابط فلايدخل في أبوابٍ متعددةٍ، وإنّما هوخاصٌ ببابٍ واحدٍ، كقولنا في باب القدر:"أفعال الله لايسأل عنها ب "لم". وقولنا في باب كلام الله جلّ وعلا:"كلام الله بحرفٍ وصوتٍ مسموع".

– أمّا أهمية معرفة القواعد والضوابط فيمكن إيجازها فيما يلي:

١– الاستغناء عن حفظ أكثرالجزئيات؛ لإندراجها في هذه الضوابط، فهي تنتظم منثور المسائل في سلكٍ واحد.

٢– أنها صيغت بعبارةٍ موجزة، فهي تمتازبالايجاز في صياغتها مع استيعابها لمعانٍ كثيرةٍ؛ ممّا يسهّل حفظها.

وهذا هو الأسلوب النبوي. قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"إنّ الله بعث محمداً صلّى الله عليه وسلّم بجوامع الكلم فيتكلّم بالكلمة الجامعة العامّة التي هي قضية كليّة، وقاعدة علمية، تتناول أنواعاً كثيرةً، وتلك الأنواع تتناول أعياناً لاتحصى، بهذا تكون النصوص محيطةً بأحكام أفعال العباد"(٢).

٣– أنّ من أحكم القواعد والضوابط تيسّر عليه تخريج المسائل الجزئية على الأصول، وهذا أدعى لضبطها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"لابدّ أن يكون مع الإنسان أصول كليّة تردّ إليها الجزئيات؛ ليتكلّم بعلمٍ وعدلٍ، ثمّ يعرف الجزئيات كيف وقعت؟ وإلاّ فيبقى في كذبٍ وجهلٍ في الجزئيات، وجهلٍ وظلمٍ في الكليات، فيتولّد فساد عظيم"(٣).

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٩٢).

(٢) الفتاوى الكبرى (٤١٣/١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠٣/١٩).

٤- أنّ في إتقان الضوابط المتعلّقة بأفعال الله وصفاته أمنُ من الاشتباه والوقوع في الخطأ ومخالفة اعتقاد أهل السنة في هذا الباب العظيم، ويتأكّد في وقتنا المعاصر معرفة ذلك؛ لكثرت شبهات أهل الكلام، وانتشار أباطيلهم .

- **أفعال الله:** جمع فعل: وهومايفعله الله جلّ وعلا وله أثره في مخلوقاته.وباب الأفعال أوسع من باب الصفات، فليس كلّ فعلٍ أطلق أوأضيف إلى الله جلّ وعلا من فعله يمكننا أن نشتقّ منه صفةً.

مثال ذلك:التعبير في باب الأفعال ب"يتحرّك"[(١)]، وهومستعمل لدى بعض أئمة السنة المتقدمين.

ويريدون به:تحقيق إثبات الصفات الفعلية الاختيارية لله جلّ وعلا.وهذا من التوسّع في اللفظ.

- **أما صفات الله:** فهي جمع صفةٍ وهي الأمارة اللازمة للشيء، فالواو والصاد والفاء:أصل واحد هو: تحلية الشيء[(٢)].

وأمّا تعريف الصفة اصطلاحاً:فهي معنىً قائم بالذات. كما قال ابن القيم في النونية:

والوصف معنىً قائم بالذات   والأسماء إعلام له بوزان[(٣)].

---

(١) عبّر بذلك الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه النقض على بشرالمريسي (٢١٥/١).والإمام حرب الكرماني في اعتقاده (ص٥٨٠) ضمن الجامع في عقائد ورسائل أهل السنة والأثر.جمعه/عادل آل حمدان .

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١١٥/٦).

(٣) شرح قصيدة ابن القيم للشيخ أحمدبن عيسى (١٢٧/٢).

فالصفة: هي ماقام بذات الربّ جلّ وعلا ممّا يميّزها عن غيرها.

و"الفرق بين أفعال الله وصفاته: أنّ الأفعال مشتملة على صفةٍ وعلى زمنٍ؛ لأنّ الفعل يشتمل على حدثٍ، وعلى زمنٍ، والحدث هذا وصف، ولما كان كذلك كان الفعل المضاف إلى الله جلّ وعلا لايدلّ على الصفة التي اشتمل عليها هذا الفعل بإطلاق، بل قد يوصف الله عز وجلّ بها، وقد لايوصف؛ لأنّ باب الأفعال أوسع من باب الصفات، مثاله: ﴿**ثمّ استوى على العرش**﴾ [الفرقان:٥٩] فاستواء الله صفة أخذناها من فعل استوى؛ لأنّ استوى مشتمل على حدثٍ وهو الاستواء، ويشتمل على زمن وهو الماضي، ويثبت الاستواء كصفةٍ لله جلّ وعلا كما يليق بجلاله وبعظمته؛ لأنّه متضمّن كمالاً، فيقال:من صفات الله الاستواء على العرش.

المثال الثاني: ﴿**ويمكرون ويمكر الله**﴾ [الأنفال:٣٠] (ويمكرالله) هذا فعل مضارع مشتمل على صفةٍ، وهي المكر ومشتمل على زمنٍ، وهوالمضارع، لكن لايقال:هذا الفعل يدلّ على إثبات صفة المكر؛ لأنّ صفة المكر ليست دائماً صفة كمال؛ لهذا قال أئمة أهل السنة:إنّ باب الأفعال أوسع من باب الصفات، فقد يضاف الفعل إلى الحقّ عزوجلّ، ولاتثبت الصفة التي تضمنها هذا الفعل..إذاً ثمّ فرق بين أفعال الله عزوجل، وبين صفاته.أمّا من جهة قيامها جميعاًبالله عزوجل فالصفة قائمة بالله، ولها أثر في الخارج مثل:صفة الخلق لها أثر، وهوالمخلوق، صفة الرحمة لها أثر في المرحوم، وهكذا، والفعل في تعلّقه بالله عزوجل قد يكون متعدّياً، وقد يكون لازماً..، المقصود أنّ باب الأفعال أوسع من باب الصفات. وأنّه لايطرد القول بالمساواة بين الفعل القائم بالله وبين الصفات القائمة بالله عزوجل"(١).

(١) الأجوبة والبحوث والمدارسات المشتملة عليها الدروس العلمية للشيخ صالح ال الشيخ (١/٢٤٢-٢٤٣).

المبحث الأول

جهود الشيخ السعدي في تحرير الضوابط المتعلقة بأفعال الله.

حرّر الشيخ ابن سعدي رحمه الله مذهب أهل السنة والجماعة في دوام أفعال الله في الماضي والمستقبل بعبارةٍ متينةٍ قائلاً:"أمّا مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة العظيمة فهي مادلّ عليه الكتاب والسنة والعقول السليمة؛ أنّ الله تبارك وتعالى لم يزل ولايزال كاملاً متصفاً بجميع صفات الكمال فيما لم يزل ولايزال، ولم يزل تبارك وتعالى يفعل مايشاء في الوقت الذي يشاء؛ فإنّه لم يزل فعّالاً لمايريد، والفعل من أعظم صفات الكمال، فكيف يمكن أن يكون في وقتٍ من الأوقات خالياً من هذا الكمال؟ ! وهذا يقتضي أنّه مامن مخلوقٍ إلاّ وقبله مخلوق، ومامن محدثٍ إلاّ وقبله حوادث صادرة عن كمال قدرة الله وإرادته.

وهذا لايقتضي كون شيءٍ من أعيان العالم قديماً، بل هذا الأصل أكبردليلٍ على حدوث العالم؛ فالتسلسل[١]الباطل باتفاق العقلاء هوالتسلسل في العلل والمؤثرين هذا المحال الممتنع، وأمّا التسلسل في الآثار فإنّه ثابت بالأدلّة السمعية والأدلّة العقلية لايمكن غيره؛ فالله تعالى لم يزل قادراً على الفعل، ولم يزل يفعل ولايزال يفعل"(٢).

ويذكر –رحمه الله–ضابط جواز القول بدوام أفعال الله في الماضي والمستقبل عند أهل السنة فيقول:" لم يقل أحد من أهل السنة والجماعة المثبتين للتسلسل في الماضي والمستقبل:إنّ شيئاً من الأعيان والأفراد قديم، وإنّما التسلسل الذي لايدلّ النقل والعقل إلاّ عليه أنّ نوع الفعل لله تعالى لم يزل ولايزال؛

---

(١) مصطلح التسلسل: لم يرد في القرآن أوالسنة، وهومن الألفاظ المجملة التي أحدثها المتكلمون ويراد به عند الإطلاق:"ترتيب أمور غيرمتناهية".والتسلسل ثلاثة أنواع:النوع الأول:التسلسل الممتنع، وهو التسلسل في المؤثرات، والفاعلين، والعلل"بأن يكون للفاعل فاعل، وللفاعل فاعل إلى مالانهاية".وهذا باطل بصريح العقل واتفاق العقلاء، ومنه التسلسل في تمام كون المؤثر مؤثراً؛ كأن يقال:الحادث لابد له من سببٍ حادث، وذلك السبب لابد له من سببٍ حادث. النوع الثاني:التسلسل الممكن: وهوالتسلسل في المفعولات، والآثار المتعاقبة"بأن يكون الحادث الثاني موقوفاً على حادثٍ قبله.وهذا جائز، فكلّ ماسوى الله مخلوق حادث بعد أن لم يكن.

النوع الثالث:التسلسل الواجب:وهو مادلّ عليه الشرع والعقل من دوام أفعال الرب في الأبد، وكذلك التسلسل في أفعاله من طرف الأزل، وأنّ كلّ فعلٍ مسبوقٍ بآخر.ولم يكن ربنا جلّ وعلا في وقتٍ من الأوقات معطّلاً عن كماله من الفعل.

انظر:التعريفات للجرجاني (ص٨٤)، درء تعارض العقل والنقل (٣٢١/١)، الصفدية (٤٩/١-٥٣)، شرح الطحاوية (١٠٧/١).

(٢) توضيح معاني الكافية الشافية، ضمن مجموع مؤلفات الشيخ (٣٥٧/٦-٣٥٨).

فلم يزل الله يفعل، وكلّ فردٍ من مفعولاته قبله فرد، وقبل ذلك فرد إلى غيرنهايةٍ، وكذلك كلّ فردٍ بعده فرد إلى غيرنهاية؛ فالأفراد تفنى ولها مبتدأ ومنتهى، وأمّا النوع فلا له منتهى، كما أنّه ليس له مبتدأ؛ لأنّه كما تقدم أنه من صفات الكمال، والله تعالى لايمكن أن يخلو بوقتٍ من الأوقات عن الكمال من كلّ وجهٍ.

ونظير الأعيان المخلوقة نظير تعاقب الأزمان المخلوقة؛ كلّ وقتٍ قبله وقت إلى غيرنهايةٍ، كما أنّ كلّ وقتٍ بعده وقت وزمان إلى غيرنهايةٍ، وهذا معروف بأدنى تأمّل وتفكّر"(١).

ويؤكّد –رحمه الله– عدم امتناع الفعل على الله فيقول:"وإذا كان من المعلوم ضرورةً أنّ الربّ تعالى لم يزل على كلّ شيءٍ قدير، ولم يزل نافذ الإرادة، فلأي شيءٍ يمتنع الفعل عن الله في وقتٍ من الأوقات؟ !

وهذا الذي فطر الله عباده عليه؛ فكلّ مؤمنٍ يقول:يادائم الإحسان، ياقديم البر، يادائم السلطان والجود والامتنان من غير أن ينكر بعضهم على بعض، بل هذا هوالحق الذي لايقبل الريب، وإذا كانت أفعال الله تابعةً لكماله ونعوت جلاله، فإنّ الله لم يزل كاملاً، ومن كماله دوام أفعاله، فإنّه تعالى كمل ففعل... فإنّ الربّ فعّال غيرمعطّل عن كماله وفعله في كلّ وقتٍ، فكلّ يومٍ هوفي شأن يدبر الأمور ويفعل ماتقتضيه حكمته...وإذا كان الله تعالى لم يزل موصوفاً بتمام القدرة ونعوت المشيئة وإحاطة العلم والحياة الكاملة–؛ لأنها أوصاف ذاتية لله ومع وجودها يمتنع امتناع الفعل؛ لأنّ تمام الفعل بوجودها–فلأيّ شيءٍ قد تأخّر فعله مع وجود سببه التامّ؟!

فالفعل لم يمتنع على الله، بل لم يزل ممكناً ولايزال؛ لأنّ الله جعل عدم الفعل نقصاً، ونعت به آلهة المشركين، فكيف يتصف بها ربّ العالمين وهوينعى عليهم اتخاذ الأصنام آلهة تعبد وهي لاتسمع ولاتبصر، ولالها كمال ولافعال؟ فيدلّ على أنها لاتستحقّ من الألوهية شيئاً، وأمّا الله تعالى فلم يزل هوالإله الحق، فهل يمكن أن يسلب عنه الفعل والتكليم؟ !فإذا كان الله لم يزل إلهاً، فكذلك لم يزل فاعلاً متكلّماً"(٢).

وفي تقريرٍ متين لمسألة دوام أفعال الله يقول الشيخ –رحمه الله–:"والذي دلّت عليه النصوص الكثيرة وأجمع عليه سلف الأمّة وأئمّتها أنّ الله لم يزل فعالاً لمايريد، وأنّ جميع الحوادث والأعيان، والأوصاف مخلوقةً لله تعالى، حادثةً بعد أن لم تكن، فالله تعالى هوالأول الذي ليس قبله شيء.

---

(١) توضيح معاني الكافية الشافية ضمن مجموع مؤلفات الشيخ (٤٢٠/٦).

(٢) المصدرالسابق (٤١٣/٦–٤١٤).

وأمّا المخلوقات فمامن مخلوقٍ إلاّ وقبله مخلوق.والله تعالى في كلّ وقتٍ من الأوقات الماضية التي لامنتهى لحدّها ولالعدّها، يحدث مايشاء أن يحدثه من مخلوقاته؛ كما أنّه لايزال يحدث مايشاء في الأزمان المستقبلة التي لانهاية لها، فإنّ وصفه اللازم الذي لاينفكّ عنه أنّه كلّ يومٍ هو في شأن"[١].

وفي تنبيهٍ دقيق يشير الشيخ –رحمه الله– إلى ضابطٍ مهمٍ لضبط المسألة فيقول:"الله بصفاته قديم، وماسواه محدث، والله تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، السابق لكلّ شيء؛ فليس شيء من مخلوقاته مقارناً له كما يقوله الزنادقة الدهرية من الفلاسفة[٢] وغيرهم؛ فإنّهم يقولون: لم يزل هذا العالم المشاهد قديماً، وصرّحوا بذلك"[٣].

أقول:يتبين بما سبق نقله عن الشيخ –رحمه الله–دقّته في تحرير الضوابط المتعلّقة بهذه المسألة وهي:دوام أفعال الله جلّ وعلا في الماضي والمستقبل؛ ممّا سهّل فهمها لطلبة العلم والمتخصصين في العقيدة.

---

(١) الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية (ص ١٤٤-١٤٥).

(٢) القول بقدم العالم وأنّ وجوده مقارن لوجود الله هوماعليه الفلاسفة كابن سينا، فيرون أنّه لم يزل موجوداً مع الله ومعلولاً له، ومساوقاً له، غيرمتأخّرٍ عنه بالزمان، مساوقة المعلول للعلة، ومساوقة النورللشمس، وأنّ تقدّم الباري –تعالى–عليه كتقدّم العلّة على المعلول، وهوتقدّم بالذات والرتبة لابالزمان.انظر:تهافت الفلاسفة للغزالي(ص٢٢).

قال ابن سينا مفصلاً معنى القدم:"وأمّا القديم المطلق فهوعلى وجهين:بحسب الزمان وبحسب الذات، أمّا الذي بحسب الزمان، فهوالشيء الذي وجد في زمانٍ غيرمتناهٍ.وأمّا القديم بحسب الذات، فهوالشيء الذي ليس له مبدأ لوجود ذاته مبدأ أوجبه.فالقديم بحسب الزمان هوالذي له مبدأ زماني، والقديم بحسب الذات هوالذي ليس له مبدأ يتعلّق به، وهوالواحد الحق". فعنده:القديم بالذات هوالله، وأمّا القديم بحسب الزمان فهووجود الملائكة والسماوات، وجملة أصول العالم عنده.

والقديم بالذات والقديم بالزمان يتفقان في القدم المطلق ، وعدم السبق بالعدم، ويدلّ على ذلك معنى الحادث عند الفلاسفة، فالحادث يطلق ويراد به:مايفتقر إلى العلّة، وإن كان غيرمسبوقٍ بالعدم كالعالم ، وعلى مالوجوده أول وهو مسبوق بالعدم، فعلى هذا:العالم إن سمّي عندهم قديماً فباعتبار أنّه غير مسبوق بالعدم، وإن سمّي حادثاً فباعتبار أنّه مفتقر إلى العلّة في وجوده.

انظر:الحدود لابن سينا، ضمن المصطلح الفلسفي للدكتور الأعسم (ص٢٦٢-٢٦٣)، والنجاة في المنطق والإلهيات له أيضاً (٦٩/٢).والمبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي (١١٩).

(٣) توضيح معاني الكافية الشافية، ضمن مجموع مؤلفات الشيخ (٤١٥/٦).

المبحث الثاني

جهود الشيخ السعدي في تحرير الضوابط المتعلّقة بصفات الله

تميز الشيخ –رحمه الله– بدقةّ تحريره للضوابط المتعلّقة بصفات الله جلّ وعلا.

فهو يقرّر أنّ "من الأصول المتفق عليها بين السلف التي دلّت عليها هذه النصوص أنّ صفات الباري قسمان:

صفات ذاتية:لاتنفكّ عنها الذات كصفة الحياة، والعلم، والقدرة، والقوة، والعزة، والملك، والعظمة، والكبرياء، ونحوها، كالعلو المطلق.

وصفات فعلية:تتعلّق بها أفعاله كلّ وقتٍ وآنٍ وزمان، ولها آثارها في الخلق والأمر، فيؤمنون بأنّه تعالى فعّال لمايريد وأنّه لم يزل ولايزال يقول ويتكلّم ويخلق ويدبر الأمور، وأنّ أفعاله تقع شيئاً فشيئاً تبعاً لحكمته وإرادته... وقد دلّ على هذا الأصل الكبير مافي هذه النصوص من ذكر(قال) و(يقول) و(سمع) و(يسمع) و(كلّم) و(يكلّم) و(نادى) و(ناجى) و(علم) و(كتب) و(يكتب) و(جاء) و(يجيء) و(أتى) و(يأتي) و(أوحى) و(يوحي) ونحوها من الأفعال المتنوعة التي تقع مقيّدةً بأوقاتها. وهذا من أكبر الأصول وأعظمها.

ولقد صنّف فيه المصنّف مصنّفاً مستقلاًّ وهوالمسمّى بالأفعال الاختيارية[(١)].

ومن تحريراته المتقنة لضابط الصفات الذاتية والفعلية ماذكره بقوله:"اعلم أنّ صفات الذات هي الصفات اللازمة التي لاتنفكّ ذات الباري عنها، بل هوموصوف بها.وهي ثابتةُ له كلّ وقتٍ وفي كلّ حالٍ ولاتتعلّق بقدرته ومشيئته وذلك مثل الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والعظمة، والكبرياء، والعلو، والحمد، والمجد والجلال ، والجمال، والعزة، والحكمة، ونحوذلك من الصفات التي هي من لوازم ذاته لاينفكّ عنها ولايخلومنها، فله منها كمالها وغاياتها ونهاياتها بحيث لايحيط العباد ببعض هذه الصفات.

---

(١) التنبيهات اللطيفة على مااحتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة، ضمن مجموع مؤلفات الشيخ (٧٣٥/٦).ومراد الشيخ ابن سعدي بقوله:"صنّف فيه المصنّف مصنّفاً مستقلاًّ":أنّ لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة بعنوان:"الصفات الاختيارية" وهي مطبوعة ضمن المجموعة الثانية من جامع الرسائل الذي حقّقه د.محمد رشاد سا لم.
وقد عرّفها شيخ الإسلام بقوله:"هي الأمور التي يتصف بها الربّ عزوجلّ، فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته ".رسالة في الصفات الاختيارية (٣/٢).

وأمّا صفات الأفعال فهي كلّ صفةٍ تتعلّق بقدرته ومشيئته، وهي التي إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، وذلك مثل صفة الكلام، فإنّه موصوف بالكلام الذي لاينفد ولايبيد وكلامه متعلّق بمشيئته وقدرته، فإن شاء تكلّم وإن شاء لم يتكلّم.وكذلك صفة الرحمة، فإنّها صفة ذاتية، وصفة فعلية، فإنه يرحم من يشاء: (**نصيب برحمتنا من نشاء**) [يوسف:٥٦]. وكذلك الاستواء على العرش فإنّه لم يستوعليه إلاّ بعد خلق السماوات والأرض.

وكذلك النزول إلى السماء الدنيا كلّ ليلةٍ، فإنها من صفات الأفعال، فإنّه ينزل إذا شاء كيف يشاء.

وكذلك من صفاته الفعلية صفات الخلق والرزق والتصريف والتدبير؛ فإنّه موصوف بأنّه الخلاّق والرزّاق المتصرّف المدبّر للمخلوقات، ولكنّها تتعلّق بمشيئته وقدرته، فإنّه كلّ يومٍ هوفي شأن، وهي شؤون وتدابير وتصاريف يبديها ويظهرها في أوقاتها اللائقة بها بحسب حكمته وحمده، وذلك كلّه بقدرته ومشيئته.

فهذا على وجه الإشارة هوالفرق بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية"[1].

ثمّ حرّر الفرق بين الصفات الذاتية والفعلية قائلاً:"وهذه الصفات كلّها تشترك أنها قائمة بالله، والله موصوف بها.وتشترك كلّهابأنّ الله تعالى لم يزل موصوفاً بها أزلاً وأبداً في جميع الأوقات، إلاّ أنّ صفات الأفعال قديم نوعها، لاابتداء لذلك ولاانتهاء، ولكنّها تبع لقدرته ومشيئته، لاتزال تتجدد شيئاً فشيئاً بحسب حكمة الله وحمده.

فمثلاً: نوع الكلام قديم، يعني:أنّه يجب علينا أن نؤمن بأنّه تعالى لم يزل متكلّماً وموصوفاً بالكلام، ولكنّ كلماته التي لاتفنى ولاتبيد، لم تزل تتجدد، فيتكلّم كلّ وقتٍ إذا شاء، بالكلام القدري والشرعي، بحسب مشيئته وقدرته. ومن كلامه العظيم:الكتب التي أنزلها الله على رسله.وكلماته التي يكلّم بها ملائكته وأنبياءه وماشاء من خلقه كلّها لاتزال تتجدد كلّ وقتٍ بحسب إرادته وحكمته... وكذلك من صفات أفعاله:أنه لم يزل فعالاً لمايريد، ولم يزل بالفعل موصوفاً وبكمال القدرة معروفاً، ولايزال يفعل الأفعال المتعلّقة بنفسه كالاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا، والإتيان في ظللٍ من الغمام يوم القيامة، ولايزال يفعل الأفعال المتعلّقة بخلقه كأنواع التصاريف والشئون، فكلّ يومٍ هوفي شأن يخلق ويرزق، ويحي ويميت، ويسعد ويشقي، ويغني ويفقر، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، ويغفر الذنوب ويفرج الكروب، ويجيب الدعوات، ويغيث اللهفات.

---

(١) الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية (ص ١٢٠).

فصفات الأفعال: نوعها قديم لم يزل ولايزال، وأفرادها وجزئياتها لاتزال تتجدد كلّ وقتٍ بحسب إرادته وحكمته التي يحمد عليها.

أمّا الصفات الذاتية: فهي التي لم تزل ولاتزال ولكن ليس لها مفعولات تتجدد وتحدث عنها وذلك كالحياة والبصر والعلم ، وأنّه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء.

وبهذا عرفت الفرق بين الصفات الفعلية والذاتية وأنّ الجميع اشتركا بأنّ الله موصوف بها.وافترقا بأنّ صفات الأفعال لها آثار ومفعولات تتجدد عنها"(١).

وممّاحرّره الشيخ – رحمه الله – في ضابط صفات الأفعال فقال:" وصفات الأفعال إذا أطلقها أهل السنة فمرادهم أنّها جامعة للأمرين وأنّها صفة ذات لتعلّقها بالذات، واتصاف الذات بها، وصفة فعلٍ لكونها تابعةً للمشيئة والقدرة؛ لأنّه متقرّر عندهم أنّ صفة الفعل صفة ذات"(٢).

ومن تقريراته البديعة في تحرير الفرق بين الصفات الذاتية والفعلية ماذكره في شرحه على توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية بقوله:"الفرق بين الصفات الذاتية والفعلية من جهة أنّ الصفات الذاتية لاينفكّ عنها بوقتٍ ولاحالٍ من الأحوال، كالعلم الذي لايمكن أن يفارقه بحال، وكالقدرة والغنى الذي هومن لوازم ذاته، وكالعلو على المخلوقات ونحو ذلك.

وأمّا الصفات الفعلية فضابطها هي كلّ صفةٍ تعلّقت بقدرته ومشيئته، التي إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها على حسب ماتقتضيه الحكمة الربانية، ويعبّر عنها بالأفعال الاختيارية؛ أي المتعلّقة بإرادته واختياره تعالى، وذلك كالكلام، فإنّه لم يزل ولايزال متكلّماً إذا شاء وكيف شاء، لايخلو وقت من الأوقات السابقة والأوقات اللاحقة التي لامنتهى لها ولاغاية إلاّ وهو موصوف بأنّه متكلّم بمايشاء بكلماته الدينية وكلماته القدرية، بل لو أنّ مافي الأرض من شجرةٍ أقلام، والبحريمدّه من بعده سبعة أبحرٍ مداداً، فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد لنفدت ولم تنفد كلمات الله، إذ هي غيرمخلوقة، ولامنتهية... فهذا التقسيم بين صفات الذات وصفات الأفعال هوالحق الذي تدلّ عليه الأدلّة والبراهين، فليس الوصف مورد التقسيم، فإنّها كلّها قائمة بالله قد اتصف بها، وإنّما مورد التقسيم ماقد قام بذات الله من الصفات اللازمة التي لاينفكّ عنها أبداً، والصفات المتعلّقة بقدرته ومشيئته وهي الصفات الفعلية"(٣).

---

(١) المصدرالسابق (ص١٢٨-١٢٩).

(٢) من مراسلة بين الشيخ ابن سعدي والشيخ عبدالعزيز السبيل، ضمن مجموع مؤلفات الشيخ-قسم المراسلات (٦٠١/٢٥).

(٣) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية ضمن مجموع مؤلفات الشيخ (٥٩٨/٦-٥٩٩).

ف"صفات الذات متعلّقة بالذات، وصفات أفعاله متصفة بها الذات ومتعلّقة بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال"[1].

وممّا قرّره الشيخ –رحمه الله–أنّ مايدخل في توحيد الأسماء والصفات:"إثبات الصفات الذاتية التي لاينفكّ عنها..، والصفات الفعلية وهي الصفات المتعلّقة بمشيئته وقدرته ، وأنّ جميعها تثبت لله من غيرتمثيلٍ ولاتعطيلٍ وأنّها كلّها قائمة بذاته وهوموصوف بها.

وأنّه تعالى لم يزل ولايزال يقول ويفعل وأنّه فعال لمايريد ويتكلّم بماشاء إذا شاء كيف شاء، لم يزل بالكلام موصوفاً وبالرحمة والإحسان معروفاً"[2].

أقول: يتبين بماسبق نقله متانة تقريرات الشيخ –رحمه الله– في ذكر ضوابط الصفات الذاتية والفعلية لله جلّ وعلا مع ذكر المشترك بينهم، ووجه الاختلاف بين النوعين.

---

(١) الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين ضمن مجموع مؤلفات الشيخ (٦/٧٠٥).

(٢) مختصر في أصول العقائد الدينية ضمن مجموع مؤلفات الشيخ (٦/٢٨٨).

المبحث الثالث

جهود الشيخ السعدي في نقد ضوابط الصفات والأفعال لدى المتكلمين

للشيخ –رحمه الله– ردود محكمة على نقد الصفات وتقسيمها لدى المتكلمين.

ففي شرحه لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية **يرد على نفي الأشاعرة**(١) **لصفات الفعل الاختيارية وإنكارهم لتقسيم الصفات لذاتية وفعلية** قائلاً:"ثمّ أنكرالمصنف على من قسّمها غيرهذا التقسيم، ممّن ينتسب إلى الأشعري وغيره من أهل الكلام، أنّه لم يرد ماذكره من هذا التقسيم، بل أرادوا أنّ صفات الأفعال لم تقم بالله ولم يتصف بها، وزعموا أنّ ذلك يقتضي حلول الحوادث في ذات الله(٢)، فنفوا بهذا اللفظ كلّ صفةٍ فعلية، فأنكروا استواءه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا، وأفعاله التي يوجدها شيئاً فشيئاً، وبنوا على هذا أنّ الكلام عبارة عن المعنى النفسي القديم الذي لايعقل، ونفوا أن يكون متكلّماً في كلّ وقتٍ بماشاء وإذاشاء، وهذا التعطيل لأفعال الله نظير تعطيل الجهمية٣ومن تبعهم لجميع صفات الله الذاتية والفعلية، ولافرق بين الأمرين.

ويواصل قائلاً :"الأشعرية نقضوا أصلهم الذي ردوا به على الجهمية في صفات الأفعال، وعطّلوا الأفعال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله، فتناقضوا في هذا الأصل، فاستطالت عليهم الجهمية بماسلّموه لهم من هذا الأصل الذي نفوا به الأفعال لله، وقالوا:الفعل هوالمفعول، فحرّفوا نصوص الكتاب

---

(١) نسبةً لأبي الحسن الأشعري.فرقة كلامية ترى تقديم العقل على النقل، جمعوا بين عقيدة غلاة المرجئة في الإيمان وأنه التصديق القلبي فقط، والجبر في أفعال العباد بأن العبد له قدرة غيرمؤثرة، مع نفي الحكمة والتعليل في أفعال الله.إلى غيرذلك.من علماء الأشاعرة:الباقلاني والجويني والرازي والغزالي. انظر:الملل والنحل للشهرستاني (١٤٩/١).

(٢) حلول الحوادث:مصطلح أحدثه أهل الكلام من الكلابية والأشاعرة، ولم يرد نفيه ولاإثباته في النصوص، وفيه إجمال، فنتوقف في لفظه؛ لأنّ النصوص سكتت عنه، وأمامعناه فنستفصل عنه:فإن أريد به أنّ الله لايحل في ذاته شيء من مخلوقاته، فهذا نفي صحيح، وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية عن الله فهذا نفي باطل.وهومايريده الأشاعرة.قال ابن القيم عن هذه المسألة:"حقيقتها:إنكار أفعاله، وربوبيته، وإرادته ومشيئته".انظر:مختصرالصواعق المرسلة للموصلي (١٣١٢/٤)، شرح الطحاوية (ص١٢٥).

(٣) فرقة ضالة تنتسب للجهم بن صفوان السمرقندي، من بدعهم:القول بنفي الأسماء والصفات عن الله، وأنّ العبد مجبور على فعله ولاقدرة له ولااختيار، وأنّ الإيمان هوالمعرفة وغيرذلك. انظر:مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري (٢١٤/١).

والسنة، ونزّلوها على هذا الأصل الذي أصّلوه، وهوأنّ الفعل هو المفعول(١)، وهذا باطل في الشرع؛ لمنافاته له، فاسد في العقل؛ لأنّه محال أن يوجد مفعول بدون فعلٍ متصف به الفاعل"(٢).

ومن ردود الشيخ –رحمه الله– في ردّ بدعة نفي الصفات الفعلية الاختيارية عن الله؛ بحجّة حلول الحوادث، وأنّ الفعل هوالمفعول ماقرّره بقوله:"وصفات الأفعال إذا أطلقها أهل السنة فمرادهم أنّها جامعة للأمرين وأنّها صفة ذات لتعلّقها بالذات، واتصاف الذات بها، وصفة فعلٍ لكونها تابعةً للمشيئة والقدرة؛ لأنّه متقرّر عندهم أنّ صفة الفعل صفة ذات، وإنما يتعيّن الجمع بين الأمرين إذا ذكر مع مذهب أهل السنة مذهب الكلاّبية(٣) ومن تبعهم من الأشعرية القائلين:إنّ صفات الأفعال لاتتعلّق بالذات، والفعل عندهم عين المفعول، فيحتاج في هذه الحالة إلى الجمع بينهما احترازاً من هذا القول الباطل؛ فإنّ الحقّ أنّ الفعل غيرالمفعول، فالفعل وصف لله، والمفعول وصف قائم بغيره ومتصف به غيره"(٤).

وحرّر الشيخ –رحمه الله– مذهب أهل السنة في التفريق بين الفعل والمفعول فقال:"مذهب سلف الأمّة وأئمتها بأنّ الخلق غيرالأمر، وأنّ الفعل غيرالمفعول؛ فالفعل صفة الله، والمفعول هو المخلوق المنفصل عن الله تعالى، وعند الجهمية ومن تابعهم من طوائف البدع أنّ الخلق والأمر شيء واحد، وأنّ الفعل هوعين المفعول.

والكتاب والسنة يدلان على مذهب السلف دلالةً لاتقبل الريب.قال تعالى:"إنّ ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثمّ استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمروالنجوم مسخراتٍ بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين".(الأعراف:٥٤). فتدبر هذه الآية الكريمة تجدها مصرحةً بأنّ الخلق غيرالأمر، كما هوالأصل في العطف أنّ المعطوف غيرالمعطوف عليه...فإنّه صرّح بأنّ الشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره، وذلك بعدماأخبر بخلقها، فدلّ على أنّ الأمر غير الخلق، والأمر سواء كان مصدراً أومفعولاً من المأمور، فالغرض حاصل؛ فإن كان مصدراً كان

---

(١) انظر:محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي (ص١٥٨) حيث قال:"لايجوزقيام الحوادث بذات الله تعالى".

(٢) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية ضمن مجموع مؤلفات الشيخ (ص٥٩٩-٦٠٠).

(٣) نسبةً إلى عبدالله بن سعيد بن كلاب القطان المتوفى بعد سنة خمسين ومائتين، وهومن المتكلمين الذين أحدثوا الفرق بين صفات الله الذاتية وصفاته الفعلية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"وأمّا مسألة قيام الأفعال الاختيارية به:فإنّ ابن كلاب والأشعري وغيرهما ينفونها، وعلى ذلك بنوا قولهم في مسألة القرآن، وبسبب ذلك وغيره تكلّم الناس فيهم في هذا الباب بماهومعروف، ونسبوهم إلى البدعة وبقايا بعض الاعتزال فيهم". درء تعارض العقل والنقل (١٨/٢)، وانظر:رسالة في الصفات الاختيارية له ضمن جامع الرسائل (٣/٢-٤)، الملل والنحل للشهرستاني (١٣٤/١).

(٤) مراسلة بين الشيخ ابن سعدي والشيخ عبدالعزيز السبيل ، ضمن مجموع مؤلفات الشيخ (المراسلات) (٦٠١/٢٥-٦٠٢).

وصفاً ظاهراً، وإن كان مفعولاً فإنّ المأمور ناشئ عن الأمر وحاصل عنه، كالمصنوع ناشئ عن الصنعة وحاصل عنها، فلزم من وجود المأمور وجود الأمر، ومن انتفاء المأمور انتفاء الأمر، كمايلزم من وجودالمخلوق وجود الخلق، وفي نفيه نفيه"(١).

ومن ردود الشيخ –رحمه الله–المتينة على الأشاعرة في منعهم دوام أفعال الله في الماضي وإثباتهم له في المستقبل ماصرّح به قائلاً:"الذي حمل المتكلّمين من الكلابية وأتباعهم على القول بعدم دوام فاعية الرب وأنّ أفعاله حادثة بعد أن لم تكن–هوخشية التسلسل؛ فإنّ التسلسل باطل.

وحاصل الجواب عن هذا الإيراد:التزام القول بالتسلسل في الماضي، كماقالوابجوازه، بل وقوعه في المستقبل، ففي الحقيقة لافرق بين الأمرين، فمن زعم أنّ لفعل الله مبتدأ، وهويقول:ليس له منتهى.فقد تناقض؛ لأنّه لافرق بين الأمرين في النقل والعقل والنظروالدليل؛ فكلاهما متساويان في الإمكان والوجوب"(٢).

ومن ردوده المحكمة أيضاًقوله:"وأمّا أبوالحسن الأشعري..ومن بعدهم من أهل الكلام الباطل، فإنّهم فرّقوا بين الأمرين؛ فأبطلوا التسلسل في الماضيات، واعترفوا به في المستقبلات، وزعموا أنّ الماضي يقتضي الحدوث لوقلنابه، ويلزم حلول الحوادث في الله، والمستقبل لاينافي ذلك.**وهذا الفرق فيه من التلبيس والتمويه مالايخفى**؛ فإنّه لم يقل أحد من أهل السنة والجماعة المثبتين للتسلسل في الماضي والمستقبل:**إنّ شيئاً من الأعيان والأفراد قديم**، وإنّما التسلسل الذي لايدلّ النقل والعقل إلاّ عليه أنّ نوع الفعل لله تعالى لم يزل ولايزال؛ فلم يزل الله يفعل، وكلّ فردٍ من مفعولاته قبله فرد، وقبل ذلك فرد إلى غيرنهايةٍ، وكذلك كلّ فردٍ بعده فرد إلى غيرنهايةٍ؛ فالأفراد تفنى ولها مبتدأ ومنتهى، وأمّا النوع فلاله منتهى، كماأنّه ليس له مبتدأ؛ لأنّه كما تقدم أنه من صفات الكمال، والله تعالى لايمكن أن يخلو بوقتٍ من الأوقات عن الكمال من كلّ وجه، ونظير تعاقب الأعيان المخلوقة نظير تعاقب الأزمان المخلوقة؛ كلّ وقتٍ قبله وقت إلى غيرنهايةٍ، كما أنّ كلّ وقتٍ بعده وقت وزمان إلى غيرنهاية، وهذا معروف بأنى تأمّل وتفكر"(٣).

---

(١) توضيح معاني الكافية الشافية ضمن مجموع مؤلفات الشيخ (٦/٤٠٣–٤٠٤).

(٢) المصدرالسابق (٦/٤١٩).

(٣) المصدرالسابق (٦/٤١٩–٤٢٠).

ثمّ ذكر الشيخ –رحمه الله–السبب الذي من أجله تناقض أهل الكلام في التفريق بين دوام أفعال الله في الماضي والمستقبل قائلاً:"ولكنّ أهل الكلام لماأصّلوا أصولاً فاسدة وقواعد باطلة اعتقدوها وبنواعليها النصوص، وردّوا لأجلها ماخالفها من النصوص أوتأوّلوه أوجب لهم أن يشتبه الأمرعليهم، وإلاّ فاتصاف الباري بأنّه على الدوام فعّال لمايريد لايحتاج إلى كثير نظر؛ لأنّ أهل الكلام يتوهمون أنّهم لوقالوا بهذا القول انسدّ عليه الدليل الذي استدلّوا به على التوحيد وحدوث العالم، وهذا مجرد توهّمٍ واشتباه..

وأكبر الدليل على بطلان هذا الدليل أن يكون إيمان القرون المفضلة الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان–وهم أكمل الخلق–إيماناً–غيرمبني عليه، ولم يعرفوا الله بالأجسام والأعراض والجواهر[1]، ويفوز به هذا الخلف السوء، فيكون إيمان السابقين مبنياً على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية المؤيدة بالعقل، وإيمان هؤلاء على هذا الدليل الباطل؛ دليل الأعراض الذي ليس يذكر في كتابٍ ولاسنةٍ ولاأثرٍ عن أحدٍ من السلف، بل قد اعترف كثيرمن فضلائهم كالأشعري وغيره أنّه دليل مبتدع، وصرّح بعضهم بالحق وأنّه دليل باطل مفسدٍ للدين محبط للإيمان، والله ورسوله قد بيّن جميع الطرق المعرّفة بالله ونوّعها، ولم يذكر الله ورسوله هذا الدليل، فلوكان حقّاً نافعاً لذكره الله ورسوله، فعلم أنّه باطل ضارّ"[2].

أقول: وبماسبق نقله يتبيّن دقّة ومتانة ردود الشيخ –رحمه الله–المحكمة على المتكلمين في هاتين المسألتين وهما:–إنكارهم لقيام الصفات الفعلية الاختيارية بالله جل وعلا وعدم تفريقهم بين الفعل والمفعول.

– منعهم لدوام أفعال الله في الماضي وتجويزهم لها في المستقبل.

---

(١) الأجسام:جمع جسم وهوعبارة عن المؤتلف عن جوهرين فردين فصاعداً، فالجسم عندهم:هوالمؤلف المركب إمّا من المادة والصورة، أومن الجواهر المفردة.والجوهر الفرد:عبارة عن الجوهر الذي لايقبل التجزّي لابالفعل ولابالقوة. وأمّا العرض فهو:عبارة عن الموجود في موضوعٍ.أي:محلّ يقوم به، كاللون المحتاج في وجوده إلى جسمٍ يحلّه ويقوم به. انظر:المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي (ص١١٠)، التعريفات للجرجاني (١٩٣).

(٢) توضيح الكافية الشافية ضمن مجموع مؤلفات الشيخ (٤٢٢/٦–٤٢٣).

الخاتمة

وفيها أبرز نتائج البحث:

- تعريف الضوابط:مايجمع فروعاً من باب واحد.ومن أمثلته في باب الاعتقاد:"الله لم يزل متكلّماً إذا شاء وبما شاء" و"كلام الله بحرفٍ وصوت"، فهذان ضابطان متعلّقان بصفة الكلام لله جلّ وعلا.

- تميز الشيخ عبدالرحمن السعدي في تحرير الضوابط المتعلّقة بأفعال الله وصفاته بأمرين: دقّته في تحرير الضوابط ، وسهولة عبارته، فينتقي العبارة الواضحة التي يفهمها طالب العلم المتخصص في العقيدة وغيره.

- فمّما حرّره في ضابط دوام أفعال الله في الماضي والمستقبل:أنّ الله تبارك وتعالى لم يزل ولايزال كاملاً متصفاً بجميع صفات الكمال، فيما لم يزل ولايزال، ولم يزل تبارك وتعالى يفعل مايشاء في الوقت الذي يشاء؛ فإنّه لم يزل فعّالاً لمايريد، والفعل من أعظم صفات الكمال، فكيف يمكن أن يكون في وقتٍ من الأوقات خالياً من هذا الكمال؟ !وهذا يقتضي أنّه مامن مخلوقٍ إلاّ وقبله مخلوق، ومامن محدثٍ إلاّ وقبله حوادث صادرة عن كمال قدرة الله وإرادته.

- وممّاحرّره في ضابط الصفات الذاتية:أنّها الصفات اللازمة التي لاتنفكّ ذات الباري عنها، بل هو موصوف بها.وهي ثابتةُ له كلّ وقتٍ وفي كلّ حال ولاتتعلّق بقدرته ومشيئته، وليس لها مفعولات تتجدد وتحدث عنها.وذلك مثل:الحياة، والعلم، والقدرة .

- وذكر ضابط الصفات الفعلية بقوله:نوعها قديم لم يزل ولايزال، وأفرادها وجزئياتها لاتزال تتجدد كلّ وقتٍ بحسب إرادته وحكمته التي يحمد عليها.

- وأشار للفرق بين الذاتية والفعلية بقوله:أنّ الجميع اشتركا بأنّ الله موصوف بها وافترقا بأنّ صفات الأفعال لها آثار ومفعولات تتجدد عنها.

- لم يقل أحد من أهل السنة والجماعة المثبتين للتسلسل في الماضي والمستقبل:إنّ شيئاً من الأعيان والأفراد قديم، وإنّما التسلسل الذي لايدلّ النقل والعقل إلاّ عليه أنّ نوع الفعل لله تعالى لم يزل ولايزال؛ فلم يزل الله يفعل، وكلّ فردٍ من مفعولاته قبله فرد، وقبل ذلك فرد إلى غيرنهايةٍ، وكذلك كلّ فردٍ بعده فرد إلى غيرنهايةٍ؛ فالأفراد تفنى ولها مبتدأ ومنتهى، وأمّا النوع فلاله منتهى، كماأنّه ليس له مبتدأ.

فهرس المراجع

١. التعريفات.للجرجاني.تحقيق:د.عبدالرحمن عميرة.عالم الكتب، الطبعة الأولى:١٤٠٧هـ .

٢. التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية.ضمن مجموع مؤلفات الشيخ.العقيدة. المجلد السادس.الناشر:دارالميمان.الطبعة الثانية:١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

٣. توضيح معاني الكافية الشافية في الانتصارللفرقة الناجية.ضمن مجموع مؤلفات الشيخ.العقيدة.المجلد السادس.الناشر:دارالميمان.الطبعة الثانية:١٤٣٦هـ -٢٠١٥م.

٤. تهافت الفلاسفة، للغزالي، تعليق:محمود بيجو.دار الألباب.الطبعة الأولى:١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٥. الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية.تحقيق:د.وليد عبدالله المنيّس. الناشر:مركزالبحوث والدراسات الكويتية.الطبعة الأولى:١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٦. الأجوبة والبحوث والمدارسات المشتملة عليها الدروس العلمية.للشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ. جمع وإعداد:عادل بن محمد مرسي.المجلد الأول.العقيدة.مكتبة دار الحجاز للنشروالتوزيع. طبعة ١٤٣٦هـ.

٧. الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين.ضمن مجموع مؤلفات الشيخ.العقيدة.المجلد السادس.الناشر:دارالميمان.الطبعة الثانية:١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

٨. درء تعارض العقل والنقل.لابن تيمية.تحقيق د.محمد رشاد سالم. جامعة الإمام. الطبعة الثانية:١٤١١هـ.

٩. رسالة في الصفات الاختيارية. ضمن المجموعة الثانية من جامع الرسائل.تحقيق د.محمد رشاد سالم. الناشر:دارالمدني.الطبعة الأولى:١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

١٠. روضة الناظرين عن مآثرعلماء نجد وحوادث السنين.لمحمدبن عثمان القاضي. الطبعة الأولى، مطبعة الحلبي.١٤٠٠هـ .

١١. الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة.د.عبدالرزاق العباد.الناشر:مكتبة الرشد. الطبعة الثانية:١٤١٤هـ -١٩٩٣م.

١٢. شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزالحنفي.تحقيق:د.عبدالله التركي وشعيب الأرنؤوط.الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ .

١٣. الأشباه والنظائر.لعبدالوهاب السبكي.تحقيق:عادل أحمد، وعلي معوض.الناشر:دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى:١٤١١هـ .

١٤. شرح قصيدة ابن القيم.للشيخ أحمدبن عيسى.المكتب الإسلامي.الطبعة الثالثة:١٤٠٦هـ.

١٥. الصفدية.لابن تيمية.تحقيق:د.محمدرشاد سالم.الناشر:مكتبة ابن تيمية.الطبعة الثانية:١٤٠٦هـ .

١٦. اعتقاد حرب الكرماني.ضمن الجامع في عقائد ورسائل أهل السنة والأثر.جمعه:عادل آل حمدان. الناشر:دارالمنهج الأول.الطبعة الثانية:١٤٣٧هـ-٢٠١٦م.

١٧. علماء نجد خلال ستة قرون.للشيخ عبدالله البسام.الناشر:دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر. الطبعة الثانية:١٣٩٤هـ .

١٨. غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر.لأحمد بن محمد الحموي.الناشر:دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى:١٤٠٥هـ .

١٩. الفتاوى الكبرى.لابن تيمية.الناشر:دارالقلم.الطبعة الأولى:١٤٠٧هـ-١٩٨٧م .

٢٠.الفتوى الحموية الكبرى.لابن تيمية.تحقيق:د.عبدالقادرالغامدي.الناشر:دارالمأثور.الطبعة الأولى: ١٤٣٦هـ -٢٠١٥م .

٢١. لسان العرب. لابن منظور.اعتنى به:أمين محمد بن عبدالوهاب ومحمدالصادق. الناشر: دار إحياء التراث العربي. الطبعة الثالثة: ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.

٢٢. المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي. تحقيق: د.حسن الشافعي. الناشر: مكتبة وهبة. الطبعة الثانية: ١٤١٣هـ -١٩٩٣م.

٢٣. مجموع الفتاوى. لابن تيمية. جمع: عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد. الناشر:مجمع الملك فهد لطباعة المصحف. طبعة:١٤١٦هـ .

٢٤. مجموع مراسلات لم تنشر من قبل.بين الشيخ عبدالرحمن ابن سعدي والشيخ عبدالعزيز السبيّل. ضمن مجموع مؤلفات الشيخ.قسم المراسلات.المجلد الخامس والعشرين.

٢٥. محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين.للرازي.راجعه:طه عبدالرؤوف.الناشر:مكتبة الكليات الأزهرية.

٢٦. مختصرالصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.لابن قيم الجوزية.اختصره:ابن الموصلي. تحقيق: د.الحسن العلوي. الناشر: دار أضواء السلف. الطبعة الأولى:١٤٢٥هـ .

٢٧. مختصر في أصول العقائد الدينية.ضمن مجموع مؤلفات الشيخ. العقيدة. المجلد السادس. الناشر: دار الميمان.الطبعة الثانية:١٤٣٦هـ ٢٠١٥م .

٢٨.مشاهير علماء نجد وغيرهم.للشيخ عبدالرحمن آل الشيخ.الناشر:داراليمامة للبحث والترجمة والنشر. الطبعة الثانية:١٣٩٤هـ .

٢٩.المصطلح الفلسفي عندالعرب.د.عبدالأمير الأعسم.الناشر:المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الثانية:١٩٩٧م .

٣٠. معجم مقاييس اللغة. لابن فارس. تحقيق: عبدالسلام هارون.الناشر: دارالجيل.طبعة ١٤٢٠هـ.

٣١. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.لأبي الحسن الأشعري.تحقيق:محمدمحي الدين عبدالحميد. الناشر:المكتبة العصرية. طبعة ١٤١١هـ .

٣٢.الملل والنحل .للشهرستاني.تحقيق:محمدسيد كيلاني.الناشر:مصطفى البابي الحلبي.طبعة ١٤٠٦هـ.

٣٣.النجاة في المنطق والإلهيات.لابن سينا.تحقيق:د.عبدالرحمن عميرة.الناشر:دار الجيل. الطبعة الأولى:١٤١٢هـ .

٣٤.نقض الإمام عثمان بن سعيد الدارمي على بشر المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله من التوحيد. حققه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه: د.رشيد بن حسن الألمعي. الناشر: مكتبة الرشد. الطبعة الأولى:١٤١٨هـ -١٩٩٨م .

فهرس الموضوعات